

كيف ينظر علم النفس الى عمل الأطفال؟ الدكتور جون فيّاض: الطفل العامل طفل يعاني

كتبت لارا سعد مراد



الدكتور جون فيّاض

يعرّف صندوق الأمم المتحدة لرعاية الأطفال عمل الأطفال على أنه: «كل عمل ضار بصحة الطفل أو بنموّه أو رفاهيّته»، أي العمل الذي يضع أعباء ثقيلة على الطفل ويهدد سلامته وصحته ورفاهيته ويستفيد من ضعف الطفل وعدم قدرته على الدفاع عن حقوقه. أو العمل الذي يستغل الأطفال كعاملين ذوي أجور رخيصة بديلة عن أجور الكبار، وهو أيضا العمل الذي يستخدم الأطفال من دون أن يساهم في تنميةهم ويعيق تعلّم الأطفال وتدريبهم ويغيّر بالتالي حياتهم ومستقبلهم. ويستثني الصندوق من خانة عمل الأطفال كل الأعمال التطوّعية أو المجورة التي يقوم بها الأطفال والمناسبة لقدراتهم وأعمارهم. والتي قد يكون لها آثار ايجابية على نموهم العقلي والجسمي والذهني وبخاصة إذا قام بها الأطفال باستمتاع مع المحافظة على حقوقهم الأساسية. ويبدو من خلال ما تقدّم أن لعمل الأطفال أكثر من مفهوم وآثارا مختلفة على الأطفال نفسيا وجسديا.

فما هي هذه الآثار؟ وكيف تختلف من طفل الى آخر ومن مجتمع الى آخر؟ ما هو شعور الطفل العامل وما هي خسائره المستقبلية المرتقبة؟ بماذا يختلف عن الطفل غير العامل؟ هل من قواعد أو معايير سيكولوجية تحكم ظاهرة عمل الأطفال؟ وهل هناك فعلا تأثيرات ايجابية لهذه الظاهرة...؟ هذه الأسئلة وغيرها حملناها الى الطبيب النفسي للأطفال والمراقبين الدكتور جون فيّاض وعدنا بالآتي:

لا يختلف علم النفس - كما يقول الدكتور فيّاض على وجود آثار سلبية للعمل المبكر على الطفل، أما الإيجابيات في هذا الاطار فلا تتعدّى قدرة الطفل العامل نفسه على التأقلم مع العمل والاستفادة من خبراته المبكرة في تخديد مستقبله وبلورة شخصيته كبالغ في المجتمع. وبالتالي تختلف الآثار السلبية للعمل المبكر بين طفل وآخر تبعا لظروف حياة الطفل نفسه، فالطفل المعنّف في منزله مثلا قد يجد في العمل متنقّسا ما لا يعانيه في المنزل وبخاصة اذا كانت ظروف العمل أو ربّ العمل أقلّ قساوة من ظروف العيش في البيت... ولذلك لا توجد معايير ثابتة تحدّد حسابيا الآثار السلبية للعمل المبكر، ولكن ثمة آثار ومخاطر نفسية وجسدية مشتركة لعمل الأطفال متعارف عليها وتتلخّص بالآتي:

- التطوّر والنمو الجسدي: تتأثر صحة الطفل من ناحية التناسق

يفتح الباب واسعا أمام شتى أنواع الانحرافات.

آلية دفاع

الطفل العامل يكون آلية دفاع عن انحرافاته تقوم على فكرة تقول: أنا راشد كفاية لأعمل اذا أنا راشد كفاية أيضا لأدخن مثلا أو لأشرب الكحول أو لأتعاطى المخدرات أو لأمارس الجنس... وبخاصة مع التقدم في العمر أي في فترة المراهقة التي تشكل مرحلة صعبة وخطرة في حد ذاتها فما بالك اذا رافقتها كل تلك المشاكل. وفي كلا المرحلتين أي الطفولة والمراهقة يواجه الطفل العامل مخاطر الاصابة بالخوف والقلق والاكتئاب والحزن واليأس والصدمة والاحساس بعدم الكفاءة والنظرة الدونية الى النفس وانقطاع الشهية وقلة التركيز وغيرها من المخاطر. وذلك نتيجة لكل الضغوطات التي ترافق ظروف العمل. أما في مرحلة البلوغ فاما أن يكون الفرد ذا تركيبة نفسية

مقاومة وقدرة قوية على التأقلم ومحاربة الضغوط فيخرج من معاناته بأقل ضرر ممكن ليكون فردا صالحا في المجتمع. واما أن يقع فريسة الأمراض النفسية المختلفة الأنواع والدرجات مع كل ما قد ينتج عن ذلك من انحرافات وخروقات للقوانين. واذا افترضنا جدلا أن لعمل الطفل دورا ما في اكتساب المهارات والخبرات، فانها تأتي حتما في وقت غير ملائم، كما أنها تتسم غالبا بالطابع اليدوي البسيط الذي لا يترك للطفل مجالا واسعا لتدريب عقله وتنمية مداركه وقدراته الذهنية. كما أن أي «إيجابيات» محتملة للعمل المبكر - بمفهومه السلبي طبعاً - ان وجدت فسرعان ما ستتضاءل أمام فداحة الخسائر والاحساس بالقهر والاغتراب وأمام خطورة الآثار التي تتركها بشكل عام الخبرات السيئة على جوانب الحياة كافة.

دور الأهل

لا يوجد معيار عمري موحد يحدد جهوزية الانسان للعمل - يقول الدكتور فيّاض - فلكل فرد شخصيته وطباعه ومكتسباته واختلافاته النفسية والفكرية. وفي هذا الاطار لا يمكن الاعتماد الا على معيار النمو المعين للفرد. وبالتالي يصبح عمل الطفل مضرا ومرفوضا عندما يفوق قدرته ويتعدى مرحلة النمو الخاصة به. والمعيار يختلف أيضا تبعا



للمجتمعات والحقبات التاريخية . فالعمل الزراعي المبكر كان طبيعيا جدا في مراحل تاريخية سابقة. وما زال كذلك في بعض المجتمعات الريفية اليوم. وفي المقابل يتخذ العمل المبكر أي في عمر ال ١٥ أو ال ١٦ عاما في المجتمعات الغربية اليوم شكلا مقبولا لأنه محمي قانونا. أما في لبنان فالأمر مختلف جدا رغم وجود بعض قوانين الحماية في هذا المجال.

ان للأهل دورا مهما في ظاهرة عمل الأطفال - يقول الدكتور فيّاض. فالطفل العامل الذي يجد في المنزل من يستمع اليه ويصغي الى مشاكله ومعاناته. يجد سندا له في محنته وان كان هذا السند لا يشفي الجراح ولكنه بالتأكيد يلطفها ويخفف من وطأتها وبالتالي من تأثيراتها النفسية. وقد أثبتت دراسات سابقة جرت على أطفال الحروب في ادراك أنهم تضرروا نفسيا بسبب تعرضهم للعنف داخل المنزل وبالإضافة لتعرضهم لمخاطر الحروب نفسها. ولذلك فان دور الأهل مهم جدا في ما يتعلق بالأبناء وبخاصة العاملين منهم.

وفي النهاية يركّز الدكتور فيّاض على أن الطفولة هي بنية هشة تتطلب عناية فائقة لضمان تكامله بصورة ايجابية ومتوازنة. والعمل المبكر بمفهومه السلبي قد يكون من أقوى المخاطر التي تهدد هذا البنية.